أدب الفقهاء

- ١٤ -

النظم التعليمي

ومن ألوان أدب الفقهاء ما يسمى بالنظم التعليمي ، وهو هـذه المتون العلمية المنظومة التي تزخر بها المكتبة العربية وتُكوِّن سجلاً حافلاً من الكتب الدراسية التي لبث طلاب العلم في العالم العربي قروناً طويلةً يستعملونها في دراساتهم المتنوعة ، ويقتبسون منها المعارف والفنون جيلاً بعد جيل . ويُرجَّحُ أن أول من تعاطى هـذا اللون من الأدب أبانُ اللاحقي الأديب العباسي المشهور ، فانه كان في خدمة البرامكة كاتباً لهم ومؤدباً لأبنائهم فنظم لهم كتاب كليلة ودمنة في رجز سلس ليسهل عليهم حفظه وهو الذي يقول في أوله :

هذا كتـابُ أدبٍ ومحنة وهو الذي يدعى كليلة دمنة

فيه احتيالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهنـــد

وقد أجازوه عليه بآلاف الدنانير . ثم نظم لهم رجزاً آخر في أحكام الزكاة والصيام ، ولا شك أن غيره من الأدباء نهج هذا النهج في نظم العلوم ، لا سيما مع العلم بما حصل عليه أبان من جوائز مغرية على ذلك . والمهم أن الفكرة خرجت أولاً من عند الأدباء ثم تبناها العلماء ، والجانب الأدبي فيها هو هذه الصياغة المختصة بالشعر ، ولا ريب في أن التعبير الجميل عن الفكرة ، أيَّ فكرة ، هو مما يدخل في مفهوم الأدب بالمعنى العام ، فلهـذا عددنا هذا الانتاج من ألوان الأدب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولمَّا تداول العلماء هذا الفن من القول ، أبدؤوا فيه وأعادوا ، وأكثروا منه الى الحد الذي جاوز العد ، ولم يبق علم لم ينظموا فيه ولا أدب ولا فن ولا ضرب من ضروب المعرفة إلا أخضعوه للوزن والقافية ، إنْ في رجز أو غيره من الأبحر كالبسيط والطويل وغيرهما . فنظموا قواعد اللغة العربية من نحو وصرف وبيان ومتن اللغة كذلك ، ونظموا الفقه والأصول والكلام والتصوف والقراءات ومصطلح الحديث ، ونظموا في الطب والكيمياء والفلك والمنطق والفلسفة والجبر ، ونظموا في بعض الصناعات كالخط وتجليد الكتب وبعض الألعاب كالرماية والشطرنج ، ونظموا ما يرجع الى العادات والأخلاق وأدب المجتمع ، وما يتعلق بأمر الآخرة كالبعث والحساب والجزاء ، ونظموا في علم الجدول والسيميا وتعبير الرؤيا وغير ذلك مما لا سبيل الى حصره في هذا الفصل .

وتختلف هذه الأنظام في الطول والقِصَر بحسب الموضوعات التي تتناولها ، فمنها ذات العشرات ، ومنها ذات المئات ، ومنها ذات الألوف من الأبيات . واشتهرت الألفيات منها على الخصوص في بعض العلوم كألفيـــة ابن معطي وألفية ابن مالك ، وألفية السيوطي في النحو والصرف ، وألفية العراقي في السيرة النبوية ، وألفيته في المصطلح الحديثي وألفية السيوطي فيه أيضاً ، وألفية ابن الوردي في تعبير الرؤيا ، وألفية ابن الشحنة في الفرائض ، وألفية البرماوي في الأصول ، وألفية القباقبي في علوم البيان ، وألفية السيوطي فيه كذلك ، وألفية داود الأنطاكي في الطب وألفية أبي الوفاء المصري في المنطق ، وألفيته في العروض ، وألفية ابن شعبان في الخط وغير هذه من الألفيات المختلفة الموضوع .

وأما المنظومات التي جاوزت أبياتها الألف فمنها منظومة ابن زكرى التلمساني في علم الكلام المسماة بمحصل المقاصد ، ألف وخمسمائة بيت ونيف ، تحفة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحكام في علم الفقه لابن عاصم ، مثلها ، منظومة الكواكبي في الأصول ألف وثمانمائة ، الشقرونية في الطب لعبد القادر ابن شقرون المكناسي مثلها ، الكافية في النحو لابن مالك ، نحو ثلاثة آلاف ، الأقنوم في مبادي العلوم لعبد الرحمن الفاسي وهو شبه موسوعة تكلم فيه على نحو مائة وخمسين علماً في أكثر من خمسة آلاف بيت .

ومن الغايات في هذا الباب منظومة بدر الدين الدمشقي المسماة بفصل الخطاب في وصل الأحباب ، تكلم فيها على العلاقة الزوجية وما يتعلق بها من آداب وأحكام في نحو أربعمائة واثني عشر ألف بيت ، منها عشرة آلاف بيت من نظمه ، والباقي مما استشهد به من نظم غيره (١) .

وعلى كل حال فالمعتبر من هذه الأنظام هو الكيفية لا الكمية ، وبإيرادنا بعض النماذج منها ومن غيرها نعرف أن عملية النظم هذه لم تكن سهلة ، وانما تقتضي معاناة لكي يكون المنظوم سائغاً سهلاً يحقق المراد منه ، الذي هو تقريبُ حفظه وعُلوقُه بالذهن تيسيراً على الطلبة ، وتمكيناً لهم من تذكر قواعد العلم والاستشهاد بالبيت الذي يتضمن القاعدة المطلوبة في سهولة تامة ، لأن النظم يُقيِّدها وهو لا يغرُب عن الذهن إلا قليلاً ، كما قال ميمون الفخّار في نظم الآجرومية :

والقصد من ذا الرجز المقرّب ... تعليم أولاد صغار المكتب
عسى الذي منهم به تعلما ... يقول يا رب ارحم المعلما
لمّا رأيتُهم شقُوا وتعبوا ... في حفظ مَنْثُور ولم يقتربُوا
أيقنتُ أن النظم فيما أدري ... أشهى وأولى من نفيس النثر

ويعجبني قول الشّرف العمريطي في نظمها أيضاً :

وبعد فاعلم أنه لما اقتصر ... جل الورى على الكلام المختصر

(١) توجد نسخة من هذه المنظومة عند الأستاذ حماد بو عياد بفاس .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكان مطلوباً أشدَّ الطلب ... من الورى حفظُ اللسان العربي
كي يفهموا معاني القرآن ... والسُّنة الدقيقة المعاني
والنحو أولى أولاً أن يُعلما ... إذ الكلام دونه لن يفهما
وكان خير كتبه الكثيرة ... كرّاسةً لطيفة شهيرة
في عُربها وعُجمها والرُّوم ... ألّفها الحبر ابنُ آجروم
وانتفعت أجلة بعلمها ... معْ ما تراه من صغير حجمها
نظمتها نظماً بديعاً مقتدي ... بالأصل في تقريبها للمبتدي

فانظر هذه السلاسة وهذا الوضوح ، وقارن بين ما قاله أبان اللاحقي ، وهو أديب كبير ، في طالعة نظمه لكليلة ودمنة ، وطالعة العمريطي هذه ، يَبِينْ لك فضل هذا العالِم مع تأخره على ذلك الأديب مع تقدمه .

ومن أحلى المطالع قول ناظم كتاب المغني لابن هشام ، وهو يبين أيضاً أن سبب النظم هو التسهيل :

هذا بحمد الله نظم سهل ... مورده للطالبين نهل
ضمّنتُه قواعد الإعراب ... ومُلَح النحاة والأعراب
معتمداً على كتاب المغني ... لابن هشام شيخ هذا الفن
ترتيبه قصدتُ واختياره ... اخترت واختصرتُ في العبارة
ولم أزد على بناء القاعدة ... إلا الذي به تتم الفائدة
وأسأل الله الذي ألهمني ... لوضع هذا النظم أن يرشدني
وأن يديم به الانتفاعا ... حتى يكون صيّباً نفّاعا
ثم الصلاة مالها انصرام ... على رسول الله والسلام
ما أُعربت آياته وفُسّرت ... وأظهرت أسماؤه وأُضمرت

وإذا كان أبان وغيره ينظم للجائزة فان أصحابنا الفقهاء ينظمون رغبة في الأجر والثواب من الكريم الوهاب لأنهم يعتبرون عملهم هذا من العبادة كما قال صاحب منظومة الظاء والضاد :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أفضل ما فاه به الإنسان وخير ما جرى به اللسان
حمد الإله والصلاة بعده على النبي فهو أسنى عنده
وكل ما يُنظم للافادة فذاك معدود من العبادة
وقد نظمت جملة من الكَلِيم في الظاء والضاد جميعاً تلتئم
فاسمع بُنَيّ من أبيك سرْدَها واعرف هُديتَ حصرها وعدها
وابدأ إذا قرأتها بالظاء وثنِّ بالضاد على استواء

وهذه المطالع زيادة على بيانها للمراد من النظم فانها تعطينا مثالاً من العمل الأدَبيّ أو التعبير الفني الذي يؤدي به الناظم معاني الكتاب وقواعد العلم الذي ينظمه ، وهي كما رأينا من حيث الصناعة غايه في الانسجام والبلاغة ، بحيث تجعل الطالب يتلقى حقائق العلوم وهو متأثر بسحر البيان ومأخوذ بسر الفصاحة ، واسمع هذا المطلع الجميل ، وتمتع بحلاوة لفظه ورقة معناه على طوله وهو من نظم الشقرونية في الطب :

الحمد لله الحكيم المرشد اللهم الخير لكل مهتد
المُنزِل الغيثَ من السماء الرازق الأقوات للنُّماء
سبحانه قد سخر الرياحا مفيدةً عباده صلاحا
وأرسل اللواقح العظيمة بين يَديْ رحمته العميمة
ما طلعت من غرر السحائب مبشراتُ جمةُ العجائب
تحمل غيثاً سابغ الأيادي لكل حاضر وكل باد
سيقَتْ لسقي بلد مَوات أحْسِنْ بغيث شامل مُوَات
فاخضرت الأرض بحسن ملبس رافلة في حلل من سندس
رائقة تجلى بحلى الزهر تسدي السرور وقت مد البصر
كم أصبحت عرائس الغصون تزهو بدُر بَرْدِها المصون
وافتر ثغر نَوْرها المعطار مكللاً بلؤلؤ الأمطار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أبدت سنابل تحيط بالثمر ... في نسق تحكي عقوداً من درر
نُوارها مختلف الأشكال ... يسمو على قلائد اللآلي
من ذي أكاليل وذي أبواق ... وذي مداهن وذي أحداق
غنى عليها النحلُ بالمَزامِر ... عن أمر من بقهر كل آمر
وكل نبت من حشيش أو شجر ... خلقه لحكمة ربُّ البشر
ما خلق الرحمن شيئاً عبثا ... من كل بَرِّيّ وما قد حُرثا
يرزقنا في كل فصل نِعَما ... سبحانه عم البلاد كرما
نحمده حمد مقر بالنعم ... معترف ببعثه بعد العدم
معتقد أن ليس يُذهب الضرر ... إلا الذي أجرى القضاء والقدر
ثم الصلاة والسلام السرمدي ... على الرسول المُنْتَقَى محمد
وآله والصحب والأتباع ... ما انهلَّ وابل على البقاع
وبعد فالقصد بهذي الجمل ... ذكر مزاج قُوتِنا المستعمل
طبع الحبوب ومركّب الغذا ... وماله نفع وماله أذى
وكل قوت في اصطلاح المغرب ... لدى الحواضر وعند العرب
كذلك الخضر والمقاتي ... وما يرى منهن في الأوقات
وبَقْلها البريّ والبستاني ... وغالب المأكول من لحمان
ومن فواكه على العموم ... من طيّب يرضي ومن مذموم
وما يخصُّ اللحم من توابل ... وما يُجيد طعمَه للآكل
وربما نذكر من مياه ... أمراً كثيرُ الناس عنه سالِ
تتبعه أدوية نفيسة ... تذهب أمراضاً بدت خسيسة
كما نجيد القول في اللباس ... وفي المساكن ومأوى الناس
ونبسط التعبير في المقال ... كيما يرى مطابق السؤال
وأسأل الوهاب نيل الأرب ... فهو المرجي لبلوغ الطلب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكان هذا النظم جواباً من العلامة ابن شقرون لسؤال من تلميذه الشيخ صالح ابن المعطي ، وهو ما أشار إليه بمطابقة السؤال ، والمنظومة كلها من هذا النمط ، ولولا أني أطلت بجلب مطلعها كله لأعطيت منها أمثلة في موضوعهـــا لأنها مزدوجة الفائدة ، فهي تعليم الأدب وتدْبير الصحة .

وللعلماء في مطالع أنظامهم نوادر من ألطفها ما يحكى أن ابن مالك لما شرع في نظم ألفيته قال في مدحها :

وأستعين الله في ألفيـــة مقاصد النحو بهـــا محوية
تقرب الأقصى بلفظ موجز وتبسط البذل بوعد منجز
وتقتضي رضا بغير سخط فائقة ألفيـــة ابن معط
فائقة منهـــا بألف بيت .

ولما نظم هذا الشطر توقّف ولم يُفتَح عليه في تمامه ، ونام ليلته ؛ قالوا فرأى ابن معطى في نومه وهو لا يعرفه ، فأنشده أبياته هذه ، فأجاز شطره الأخير بقوله :

والحيُّ قدْ يغلِبُ ألْفَ ميْت

فاستيقظ ابن مالك من نومه واستحيى مما قال في حق ابن معطي وحذف ذلك الشطر وقال عقب الأبيات الثلاثة التي قبله :

وهْو بسبق حائز تفضيـلا مستوجب ثنـائي الجميلا
والله يقضي بهبات وافرة لي وله في درجات الآخرة

وتكررت الحكاية مع السيوطي ، فانه لما نظم ألفيّته في النحو قال في مطلعها :

النحو خير ما به المرء عُني إذ ليس علم عنه حقاً يغتني
وهـــذه ألفية فيه حوت أصوله ونفعَ طلاب نوت
فائقة ألفيـــة ابن مالك لكونهـا واضحة المسالك
وجمعها من الأصول ما خلت عنه وضبط مُرسلات أهملت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لكن لم يُحكَ لنا عن السيوطي أنه رأى ابن مالك في نومه وعاتبه كما عاتب ابن معطى ابن مالك .

وقد دخلت هذه المنظومات في حياة طلبة العلم وتمكنت من نفوسهم ، فبقطع النظر عن استعمالهم لها في دراساتهم المتنوعة واحتجاجهم بأبياتها في مناقشاتهم العلمية ، هناك بعض أبيات ومقاطع منها تجري على ألسنتهم ، وربما على ألسنة العموم مجرى الأمثال لدلالتها الشاملة وحسن صياغتها ، كالشطر الثاني من قول ابن عاشر في نظمه المسمى بالمرشد المعين على الضروري من علوم الدين :

فصلُ وطاعةُ الجوارح الجميع قولاً وفعلاً هو الإسلام الرفيع

فهذا الشطر نجد حتى العامة يرددونه في المناسبات المقتضية له كالوفاء بالعهد وأداء الأمانة وممارسة الشعائر الدينية فيقولون « قولاً وفعلاً هو الإسلامُ الرفيع » .

ومن اللطائف ما يجري على الألسنة من قوله في باب الحج : (وأسْرِ عَنْ في بَطْنِ وادي النار) وذلك في أماكن المرور الخطيرة وملتقى الطرق التي تكثر فيها السيارات ونحوها .

ومن هذا الباب ما يجري على الألسنة من قول ابن مالك في الألفية : (وحذف ما يعلم جائز ...) وذلك عند عـــدم التصريح بما يكره وما لا لزوم لذكره .

ومنه قوله (كمالنا إلا اتباع أحمدا) في باب الابتداء تمثيلاً لوجوب تقديم الخبر عند الحصر . على حسب ما أشار له الشطر الأول من البيت وهو قوله (وخبرَ المحصور قَدِّم أبدا) فيجري تمثيله ذلك على لسان أهل العلم وجمهور المؤمنين عند اظهار التعلق بالتمسك بالسنة واتباع الرسول ﷺ .

ولا شك أن الكلام حين يرقى إلى هذه الدرجة من دورانه على الألسنة وجريانه مجرى الأمثال العامة ، يكون آخذاً بحظه من حسن الأداء وقوة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

التعبير ، وذلك ما يؤكد القول بأن هذه الأنظام وان اشتملت على أغراض علمية صِرْفة أو تعليمية بعبارة أخرى ، فانها تكتسي حلة من البيان والوضوح تجعلها باعتبار آخر من الآثار الأدبية المرموقة .

وإلى هنا نكون قد تكلمنا على مُطلَق نظم العلوم ، أو جانب من النظم التعليمي هو المتعارف عند إطلاق هذا الاسم .

ولكنَّ هناك نوعاً غرياً منه يجب أن نفرده بكلمة ، لأنه أدل على مقدرة أصحابنا الفقهاء ، وبراعتهم الأدبية ، وهو النظم الذي يستعملون فيه رموزاً واصطلاحات خاصة فيُلِمُّون في المنظومة الصغيرة والأبيات القليلة بقواعد علم كامل من العلوم ويُحصّلون مسائله ويضبطون أصوله بحيث لو لم يتأتوْا لها ذلك التأتي اللطيف ويسلكوا لها ذلك المسالك العجيب لما وسعتهم الكتب المطولة والموضوعات المبسوطة لاستيفاء تلك الأغراض وتحصيل تلك المقاصد .

ومن أمثلته قصيدة حرز الأماني في القراءات السبع ، المعروفة بالشاطبية ، نظم أبي القاسم الشاطبي رحمه الله ، فانها على اختصارها في الجملة (إذ تبلغ ١٣٠٠ بيت) جمعت زبدة القراءات واحتوت من ذلك على علم غزير . ولذلك نجد الكثير من أهل العلم يحفظونها وقد خضع لها كبار الشعراء والبلغاء ، وحذاق أهل الرواية والقراء . قال ابن خلكان في ترجمته للشاطبي : « انه أبدع في حرز الأماني ، وهي عُمْدة قراء هذا الزمان في تعلمهم ، فقَلَّ من يشتغل بالقراءات إلا ويُقوِّم حفظها ومعرفتها ، وهي مشتملة على رموز واشارات لطيفة ، وما أظنه سُبِق إلى أسلوبها » .

واصطلاحه هو الذي أشار إليه بقوله :

جعلتُ (أبا جادٍ) على كل قارئٍ ... دليلاً على المنظوم أولَ أوّلا
ومن بعد ذكر الحرف أُسمي رجاله ... متى تنقضي آتيك بالواو فيْصلا
سوى أحرفٍ لا ريبة في اتصالها ... وبالقَيْد أستغني عن القيد إن جلا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ومن هذا الباب قصيدة (غرامي صحيح) لابن فَرْح الاشبيلي التي جمع فيها ألقاب الحديث بأسلوب عجيب ومنهج غريب ، إذ سلك بها مسلك أهل الغَزل في ظاهر اللفظ وحمل كل لقب من ألقاب الحديث على معنى يليق بهذا الغرض على طريق التورية ، حتى لو ألقيت على عربي فصيح خالي الذهن من اصطلاحات أهل الحديث لما فهم منها إلا معاني غزلية رقيقة تنشرح لها النفوس وتغتبط بها القلوب ، ومطلعها :

غرامي (صحيح) والرجافيك (مُعضَل) وحزني ودمعي مطلق (ومسلسل)

ومن هذا الباب أيضاً قصيدة أبي الجيش محمد ضياء الدين الخزرجي الأندلسي أو السبتي المعروفة بالخزرجية في علم العروض التي سارت بذكرها الركبان ، والتي جمعت مهمات هذا العلم في تسعين بيتاً ونيف بفضل ذلك الأسلوب البديع الذي ألمعنا إليه وهو الرمز والإشارة ، فبعد أن يقول في مطلعها :

وللشعر ميزانٌ يسمَّى عَروضَه بها النقص والرجحان يدريها الفتى

فيأتي به نظماً واضحاً لا غبار عليه حتى في الخَرْم الذي بأوله ، يقول رامزاً لأجزاء التفعيل العشرة مُشيراً إليها بحروف أبجد :

أصابتْ بِسَهْمَيْها جوارحَنا فدا رِكوني بهمّة كوقعيْهما سَوا

فما زائراتي فيهـــا حجبتها ولا يدُ طُولاهُنَّ يعتادُها الوفا

ومنه كذلك على طريقة التورية كما في نظم غرامي صحيح ، منظومة أبي القاسم المُهلَّبي البلنسي لمثلث قطرب في اللغة وهو الذي يقول في طالعته :

يا مولَعاً بالغضب والهجر والتجنب في جده واللعب حبُّك قد برَّح بي

ان دموعي غَمر وليس عندي غِمر يا أيها ذا الغُمر أقصر عن التعتُّب

إلى آخرها . وقد شرحه أحد المغاربة نظماً على هذا المنوال هو المثبت في مجموع المتون الكبير المطبوع طبع حجر بفاس .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويظهر أن هذا النوع من النظم قد انفرد به الأندلسيون أو كانوا هم الذين نهجوا سبيله لغيرهم فانّا لا نعلم لمشرقي نظماً على منواله إلا ما كان للعلامة الصبان الذي عارض قصيدة غرامي صحيح بأخرى فائية على مثالها في التورية يقول في أولها :

(صيلُوا)(صحيحَ) غرام صبرُه ضعفا وبدلوا (قَطْع) من في حُبِّيكُم شُغفاً

كما عارض قصيدة الخزرجية بقصيدة لامية استعمل فيها نفس رموز أبي الجيش وهي التي يقول فيها :

وبعدُ فعِلمُ الشعر فَنٌّ مؤكد فبادر إليه واستمع فيه ما حلا

وبعدُ ؛ فهذه كلمة قصيرة في هذا اللون من ألوان أدب الفقهاء ، وهو النظم التعليمي ، لم نرد بها إلا التنبيه على وجه آخر من وجوه الإحسان ، الذي لهم في ميدان الأدب ، والمشاركة التي لا تزري بهم أبداً في الانتاج الأدبي سواء كان خاصاً بهم أو عاماً ، وإلا فان بحث النظم التعليمي لا تفي به كلمة قصيرة أو طويلة ، وما أحراه أن يُفرد بالبحث ويكون أطروحة لبعض الدارسين تلم بأطرافه وتشير على سبيل التفصيل لأبعاده التي ما نظن أن كتاباً واحداً أو رسالة جامعية مفردة تحيط بها .

عبد الله كنون

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net